" النأي عن المنّ والأذى "

ومن الأخلاق القرآنية عدم إتباع النفقة والصدقة والعمل الصالح بالمن والأذى ، يقول الحق - سبحانه وتعالى- : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٦٢:٢٦٦]. والمعنى : إن الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ولا يقصدون بإنفاقها إلاَّ وجه الله ، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات ، والصدقات بالمن والأذى على من أحسنوا إليه ، مثل قوله : " إننى أحسنت اليك ، وقدمت لك خيرا ثم يذكره فإن ذلك أذى ، والله تعالى يقول: " ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ". فالذين ينفقون ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى . هؤلاء لهم ثواب ما قدموا ، وجزاء ما أحسنوا ، ولا يضرهم فزع يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على فائت من زهرة الدنيا . ثم يبين الله - عز وجل- أن رد السائل بالتى هى أحسن ، والصفح عن الحاجة خيرعند الله وأقصد من إعطائه ثم إيذائه ، أوتعيره بذل السؤال ، والله - سبحانه وتعالى- غني عن الخَلْق أجمعين ، حليم لا يعاجلهم بالعقوبة عند مخالفتهم لأوامره ، ثم أخبر الله – سبحانه وتعالى– عما يبطل الصدقة ، ويضيع الثواب ، ويذهب بخيرها وبرها ، ونفعها في الدار الآخرة . فيقول الله -عز وجل- : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ .... " . والمعنى : " يا أيها الذين آمنوا بالله ، وصدقوا برسوله لا تحبطوا ما أنفقتم بالمن والأذى ، مثله في ذلك مثل الذى يرائى الناس فيبطل بالرياء إنفاقه ، ولا يصدق بقاء الله ولا يرجوا ثواباً ، ولا يخشى عقاباً فمثله كمثل

الحجر الأملس الذى يكون عليه شيء من التراب يظنه الظان أرضاً طيبةً منبتة فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلداً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً .

كذلك المنافق الذى ينفق ماله رئاء الناس يظن أن له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت ، ولهذا يقول – سبحانه وتعالى – : ".... لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا .... " . يعنى لا يجدون لهم ثواباً في الآخرة فلا أنتفع بشيء منها البتة، والله لا يهدى هؤلاء إلى طرق الخير، ولا إلى سبل النجاة والرشاد فالقرآن الكريم يؤكد أن المن والأذى يبطل الصدقة كما يبطل الرياء وضرب لهذا مثل " الصفوان " . وفي تفسير المراغى " إن الذين يبذلون أموالهم ينفقون بذلك مرضاة ربهم ، ولا يتبعون ذلك بمنهم على من أحسنوا إليهم ، ولا بإيذائهم ، لهم عند ربهم ثواب لا يقدر قدره ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس ، وتفزعهم الاهوال ، ولا هويحزنون حين يحزن الباقون الممسكون عن الإنفاق في سبيل الله ، اذ هم أهل السكينة والاطمئنان ، والسرور الدائم .

واحكمة في تعليق هذا الثواب على ترك المن والأذى أن الإنفاق في سبيل الله يراد به وجه الله ، وطلب رضاه ، فلا وجه لمن المنفق على من أنفق عليه لأنه لا يد له قبله ولا صنيعة له عنده ، تستحق – إن لم يكافئه عليها – المن والأذى فعلى الله مثوبته دون من أنفق عليه . ثم يضع الله – سبحانه وتعالى– دستورا الحسن المعاملة بين الناس فقال : "قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ " يعنى كلام حسن، ورد جميل على السائل ، وستر لما وقع منه من الألحاف في السؤال وغيره أنفع لكم ، وأكثر فائدة من صدقة فيها أذى ، لأنه وإن كان قد خيب رجاه ، ولكن أفرح قلبه ، وهون عليه ذل السؤال . والإنفاق غير مقصود به التصدق على ذوى الحاجات والمعوذين فحسب ، بل إن التبرع لبناء مدرسة ، أومستشفى ، أوالإسهام في تعبيد الطريق أو تمهيد ممشى ، أو التبرع لكفالة اليتيم ، أومساعدة طالب العلم ، أو فك العانى الذى أثقلته الديون ..... وهكذا .

يعد كل ذلك إنفاق في سبيل الله وجميع أعمال البر والخير تُعَدُ إنفاقاً في سبيل الله، وإن لم يكن لدى المسلم مال يتبرع به فعليه التبرع بالكلمة الطيبة والتشجيع لغيره على الإنفاق ، وعلى فعل الخير. يقول الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

أما الصدقة التى يتبعها أذى فهى مشوبةٌ بضرر ما يتبعها من الايذاء ، ومن آذى فقد بغض نفسه إلى الناس بظهور في مظهر البغض لهم والسلم والولاء خير من العداوة والبغضاء .

ومن الخير للأمة أن يظهر أفرادها فى مظهر المتعاونين، يقول- سبحانه وتعالى- : ﴿ .... وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ .... ﴾ [سورة المائدة:٢]

وجماع هذا القول أن مقابلة المحتاج بكلمة تسره ترضيه خير له من الصدقة التى يتبعها الإيذاء بسوء القول ، أوسوء المقابلة واللقء . ولا فارق بين أن، يكون المحتاج فرداً . أوجماعة ، أودولة ، أوأمةً مثل التبرع لتسليح الجيش الاسلامى ليصد غارات المعتدين ، ويذود عن الأرض ، والعرض وهويسمى في عصرنا " بالمجهود الحربى " فحين تكون مع الدولة بقلبك ولسانك أجدى لها وأنفع من التبرع بالمال مع مقابلة سوء ، وفعل الأذى . وقد قررت الآية الكريمة مبدأ عاما في الشريعة الاسلامية ، وهودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح . فقد دلت على أن الخير لا يمكن أن يكون طريقاً للشر ، وعلى أن الأعمال الصالحة بحيث أن تكون خالية مما يكدرها من الشوائب التى تفسدها ، وتذهب بخيرها وفائدتها . فالذى لا يملك أن ينفق أويتصدق على الفقير فليكلمه ويسعده بكلمة طيبة ، فإن الله غنى عن صدقة عباده حيث أنه لا يقبل إلاَّ الطيب من العمل .

وفي هذا تكريم للفقراء وتوجيه لهم أن يتعلقوا بحبل الله ، ويستعينوا بالله ، وقد بين الله- سبحانه وتعالى- أن المن والأذى يهدم الصدقة بل هو هادم لفائدة الصجقة وهو الثواب الجزيل من الله- سبحانه وتعالى- . وهو تخفيف لبؤس الفقراء والمحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، وتنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها إذا كانت الصدقة في مصلحة عامة . إذ أن كل عمل لا يؤدى إلى الغاية منه فقد حبط وبطل كأن لم يكن ، فما بالك إذا أتبع بضد الغاية ونقيضها ؟ . فالإسلام يَنْهى المسلم عن ارتكاب ما يفسد صدقته من المن والأذى وحتى تكون الصدقة خالصةً لوجهه-سبحانه وتعالى- ، فالمرائى وصاحب المن والأذى عمله غير صحيح وغير مقبول لدى الله- عزوجل- . فالمنافق المرائى صفته كصفة " تراب " على حجر أملس نزل عليه مطر شديد ، فأزاله ، وترك الحجر صلداً نقيا لا تراب عليه .

ووجه الشبه بينهما هوأن الناس يرون أن لهؤلاء المرائين أعمالاً كما يرى التراب على " الصفوان " فذا جاء يوم القيامة وصاروا إلى الله-عز وجل- اضمحل ذلك وذهب ،

لأنه لم يكن لله ، كما يذهب الوابل من المطر كما كان على الصفوان ، فيتركه أملس لا شيء عليه. يقول الشاعر :

ثوب الرياء يَشِفُ عما تحته فإذا اكتسيت به فإنك عار

فالرياء والمن والأذى منافٍ للإخلاص ، فلا أجر عند الله إلاَّ للمخلصين في أعمالهم الذين يتحرون تزكية نفوسهم ، وإصلاح أحوالهم والله لا يهدى القوم الكافرين إلى ما فيه خيرهم ، ورشادهم ، فإن الإيمان هوالذى قلب صاحبه إلى الاخلاص ، ووضع النفقات في مواضعها ، والاحتراس من الإتيان بما يذهب فائدتها . وفي هذا تعريض بأن كلاً من الرياء والمن والأذى من صفات الكافرين التى ينبغى للمؤمنين أن يتجنبوها . هذه توجيهات ربانية وأرشادات قرآنية ، لوأن المسلمين اتبعوها ، وساروا على هديها لسعدوا في دنياهم ، وفي أُخراهم ولسادوا الدنيا وقادوا العالم ، كما كان أسلافهم . إنهم صنعوا امجاد وبطولات ومنحوا البلدان قاصيها ، ودانيها ، ونشروا العلم والأخلاق وحثوا الناس على الجهاد في سبيله ، وعلى الانفاق دون من وأذى ولا رياء فكانوا بحق مثلا صالحاً ، ونماذج فريدة في السلوك والعمل الصالح ، فبذلك طابت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، وطهرت سرائرهم ، وخلصت أعمالهم ، فسعدوا في الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا بحسن السيرة ، وفي الآخرة بالفوز بجنات عرضها السماوات والأرض ، أُعدت لهم ، ولأمثالهم من المتقين الصالحين النائين عن الرياء والمن والأذى والنفاق (1).

ويعضد الآية السالفة الذكر آية أُخرى. وهى قول الله – سبحانه وتعالى-: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الحُجُرات:١٧]. فالمراد : أن هؤلاء يعدون إسلامهم عليك يا محمد - ﷺ -منة وتفضيلا يستوجبون عليها الحمد والثناء، فقل لهم يا محمد- ﷺ -: "... قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ...". فإن نفع إسلامكم يعود عليكم، ولله المنة العظمى عليكم ، وذلك بالهداية للإيمان ، والتثبيت عليه ، إن كنتم صادقين فى دعوى الإيمان .وفي هذا ما إيماء وإشارة إلى أنهم كانوا كاذبون في ادعائهم الإيمان . وقد روى أن النبى- ﷺ - قال للأنصار" يوم حنين " : " " يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟وكنتم

1- صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ١٦٨ وما بعدها نتصرف .
◘ أسباب النزول للواجدى ص ٤٧ .
◘ تفسير المراغى جـ ١ ، ص ٢٩ – ٣٥ بتصرف .

متفرقين فألفكم الله بي ؟وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ " . فكلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل .

والله-عز وجل- سمى ما كان منهم إسلاماً وخضوعاً، لا إيماناً ، وذلك إظهاراً لكذبهم في قولهم " آمنا " ثم لما منوا على رسول الله- ﷺ -بما كان منهم قال- سبحانه وتعالى- لرسوله-عليه الصلاة والسلام - : أيعدون عليك بما ليس جديرا أن يعتد به من اسلامهم الذى سموه إيمانا وليس بذلك ؟ بل الله هوالذى يعتد عليهم ايمانهم إن صدقوا ، فهو قد أمدهم بهديه وتوفيقه . ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحُجُرات:١٨]. ويقول الله- سبحانه وتعالى- في هذا المضمار الأخلاقى لسيدنا محمد- ﷺ -:" ولا تمنن تستكثر ". فالله-عز وجل- يوجه نبيه -عليه الصلاة والسلام-إلى إنكار ذاته ، وعدم المن بما يقدمه من الجهد ، أواستكثاره واستعظامه : " ولا تمنن تستكثر " وهوسيقدم الكثير ، وسيبذل الكثير ، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء ، ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ، ويستكثره ويمنن به ، وهذه الدعوة لا تستقيم فى النفس تحس بما تبذل فيها .

فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلاَّ حين تنساه ، بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة فى الشعور بالله ، شاعرة بأن كل ما تقدمه هومن فضله ، ومن عطاياه . فهوفضل يمنحها إياه وعطاء يختارها له ، ويوفقها لنيله ، وهواختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله ، ولا المن والاستكثار .

ويقول بعض المفسرين ولا تُعْــطِ عطاءً يا محمد – ﷺ – وتستكثره ، لأن الكريم يستقل ما يعطى وإن كان كثيراً ، وأعط عطاءً من لا يخاف الفقر. ويقول " ابن عباس " – رضى الله عنهما –: " لا تعطى عطية تلتمس بها أفضل منها " . بمعنى لا تعط شيئاً ليعطى أكثر منه . وسر النبى أن يكون العطاء خالياً عن أنتظار العوض تعففاً وكمالاً ، فإن النبى – ﷺ – مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق . وفي ذات المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى- : ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾ [سورة البلد:٦] . والمعنى : إنهم إذا طلب اليهم أن يعملوا عملاً من أعمال البر قالوا : " إننا ننفق الكثير من أموالنا فى المفاخر والمكارم ، ولم يعلموا أن المكرمة ما عده الله مكرمة ، والبر ما اعتبره الله براً ، فليس من البر إنفاقهم المال في مشاقة الله ورسوله ، ولا إنفاقهم طائل الأموال فى الصد عن سبيل الله ، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله .

ويقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية:" يعنى بقول ابن آدم : " أنفقت مالاً لُبدًا ، أى كثيراً . ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ [سورة البلد:٧]. أيحسب أن لم يره لله-عز وجل- . فهذه الآيات تحث المسلم على التحلى بأخلاق القرآن الكريم وأن ينفق مما آتاه الله- سبحانه وتعالى- ولا تبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه ، وأن يكون ذلك الإنفاق خالصاً لوجهه تعالى ، لا ينتظر جزاء إلاَّ من الله-عز وجل- وهو خير من يثيب على البذل والعطاء والحسنة بعشر أمثالها ويضاعفها الله لمن يشاء .

يقول الله – سبحانه وتعالى- : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [سورة البقرة:٢٦١]. وقد عنى بتطبيق هذا المثل علميا بعض أعضاء الجمعية الزراعية " بمصر" فى مزارع " القمح " التى لها في التفتيش النموذجى وفى غيره ، فهدتهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبلة واحدة بل أكثر، وقد وصلت أحياناً إلى " أربعين "وأحيانا إلى " ست وخمسين " وأحياناً إلى "سبيعين حبة " أو أكثر. وقد عثر عام ١٩٤٢ م أحد مفتشى الجمعية الزراعية بمصر آنفه الذكر على " سنبلة " أنبتت " سبعاً ومائة حبة " ، وعرض نتيجة بحثة على الإخصائيين من رجال الجمعية ، وغيرهم في حفل جامع ورأوا تلك السنبلة وعدوها عدا ، فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدو رأى ، وشكروه على جهوده الموفقة ، وإن الزمان كفيل بتأييد قضايا الكتاب الكريم مهما طال عليها الأمد، وكلما تقدم العلم ظهر للناس صدق ما أخبر به القرآن الكريم . فهو الحق ، والصدق ، والنجاة ، ليس بالهزل ، ولا يأتيه الباطل من بين أيديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. حقاً إنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . إنه الحبل المتين ، وكلام الله رب العالمين [(١)].

---

1 - صفوة التفاسير ، جـ ١ ، ص ١٦٨ وما عبدها ، جـ ٣ ، ص ٢٣٨ .
- تفسير المراغى جـ ١ ، ص ٢٨ وما بعدها ، جـ ٩ ، ص ١٤٨ .
- تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٥١٢ .
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٥٦٨ .
- التسيل لعلوم التنزيل جـ ٤ ، ص ١٦٠ .
- فى ظلال القرآن الكريم للأمام سيد قطب جـ ٦ ، ص ٣٧٥٥ .